المقتضب من كتاب

سمط الجمان

و

سقط الأذهان

Türkiye Diyanet Vakfı
İslâm Araştırmaları Merkezi
Kütüphanesi
Dem. No: 131354
Tas. No: 928
IMA.M

تأليف

أبي عمرو عثمان بن علي بن عثمان

المعروف بابن الإمام الشلبي الإسعردي المتوفى بعد سنة 560هـ

قرأته وعلقت عليه

حياة قارة

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعة 1423- 2002
© جميع الحقوق محفوظة

تصدير

إن النص الذي بين أيدينا يكشف عن شغف علماء الأندلس بالتصنيف في مجال «الترجمة» وهو شغف يعكس رغبة هؤلاء العلماء في تخليد مآثرهم، وتدوين حضارتهم، والتأكيد على خصوصيتهم وهويتهم التي تميزهم عن سواهم، ولاشك في أن كتب التراجم بعامة تمثل ظاهرة لها خصوصيتها التي تميزت بها في الأندلس، فضلا على أنها مادة مصدرية تساعد في توضيح المسائل النظرية المتعلقة بالمادة التاريخية.

وحسبنا في التدليل على ذلك، أن نقول إن كتب التراجم بالأندلس نهضت للاضطلاع بهذه الرسالة، إذ إنها، في بداية الأمر، قامت على أيدي الفقهاء، وجاءت لتؤسس المرحلة الأولى لما يعرف بـ«الأندلسية» ووضع بداية لها، ولهذا اعتمدت على التعريف برواة الحديث النبوي الشريف والتأريخ لرجاله اقتداء بعلماء المشرق الذين صنفوا في هذا المجال المعرفي.

واستتبعت هذه المرحلة، مرحلة ازدهار وتطور الحضارة الأندلسية، تشكلت من خلالها «النزعة الأندلسية» التي انعكست آثارها على مختلف فروع المعرفة، من بينها كتب التراجم التي نزعت نحو التأكيد على خصوصية التطور الثقافي في الأندلس والإعراب عن الهوية الأندلسية.

ويكفي الوقوف عند خطب كتب التراجم، لنقف على الهاجس «الأندلسي» المسيطر على كل من صنف في هذا المجال، ولعل عبارة الفتح بن خاقان تؤكد ذلك : «... وكان بالأندلس أعلام فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كل تحية وسلام، فشعشعوا البدائع وروقوها، وقلدوها بمحاسنهم وطوقوها، ثم هووا في مهاوي المنايا، وانطووا بأيدي الرزايا، وبقيت مآثرهم غير مثبتة في ديوان، ولا مجملة في تصنيف أحد من الأعيان، تجتلي فيه العيون، وتجتني منه زهر الفنون...»[1]،

(1) مطمح الأنفس، ص 147-148.

وكذلك صيحة ابن بسام التي مازالت تدوي في الآفاق حتى عصرنا هذا «... وقد مجت الأسماع «يادار مية بالعلياء فالسند» وملت الطباع «لخولة أطلال ببرقة ثهمد» ومحت «قفا نبك» في يد المتعلمين...» ذلك «لأن أهل هذه الجزيرة ـــ مذ كانوا ـــ رؤساء خطابة، ورؤساء شعر وكتابة، تدفقوا فأنسوا البحور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور»[2].

من هذه الجهة، جهة متابعة طريق الأسلاف، والنهوض بهذه الرسالة العلمية والحضارية، صنف أبو عمرو بن الإمام كتاب «سمط الجمان وسقط الأذهان». وينتمي في مجال التصنيف، إلى ما يعرف بالذيول والصلات، ذلك أنه أراد أن يذيل كتابي الذخيرة وقلائد العقيان بكتاب يذكر فيه من أخل ابن خاقان وابن بسام بتوفية حقه من الفضلاء، ويلحق بذلك من أدركه بعصره في المائة السادسة.

ولعل أهمية الكتاب تكمن في تحقيق هذا الغرض، إذ يحفل بمعلومات دقيقة، وتراجم جديدة لأعلام أندلسية، منها من لم نجد له ذكراً في كل ما اطلعنا عليه من كتب صنفت في هذا الباب، ومنها من له ذكر في بعضها، لكنه مقتضب ومبتسر، فأضاف إليه ابن الإمام إضافات هامة أسهمت في بناء شخصية المترجم به بناء شمولياً.

وفي إطار الحديث عن أهمية كتاب «سمط الجمان»، يكفينا القول إنه أحد المصادر الرئيسة، والمرجعيات المركزية التي اعتمدها بنو سعيد في بناء كتاب «المغرب في حلى المغرب».

لذلك فهو من صنف الترجمة الأدبية المكرسة لأدباء الأندلس التي ارتبطت كلياً بالواقع الأندلسي، إذ إننا حين نتصفح الكتاب، نتمثل أمامنا صوراً مشرقة للجو العلمي بالأندلس، على عهد ابن الإمام، وإشعاعاً حضارياً تنعكس إياته في الترجمة بهؤلاء الأعلام، وانتخاب لمح من أخبارهم وأشعارهم وترسيلهم، استطاع المؤلف، من خلالها، أن يقدم صورة زاهية، ولمحة حضارية راقية، ومشهداً علميا عاليا عن الأندلس.

(2) الذخيرة، ق 1، م1/14-15.

ولعلنا بذلك نقف على أهمية الكتاب التوثيقية، وقيمته المرجعية المتمثلة في تقديم نصوص جديدة، تتيح أمامنا فرصة المراجعة التاريخية.

لذلك، كان مما دفعني إلى تجشم عناء الحصول على مخطوطة الكتاب، والتسلح بالصبر والأناة في تحقيقه، وإعادة بنائه، هو الدافع نفسه الذي دفع الأسلاف إلى تخليد مآثرهم، وتدوين حضارتهم. إنه إسهام متواضع من أجل تعميق الشعور بـ«الأندلسية» التي أصبحت تمثل في حاضرنا، رمزا خالدا من رموز الحضارة الإنسانية كافة، في كل أبعادها ومستوياتها، واختلاف لغاتها.

وبالله التوفيق.

الرباط فاتح رمضان 1422هـ
الموافق 17 نونبر 2001
الدكتورة حيـاة قـارة

مؤلف الكتاب

هو عثمان بن علي بن عثمان، يكنى أبا عمرو، ويعرف بابن الإمام[1]، يقال إنه شلبي[2]، وقيل إن أصله من إستجة[3]، وإليها نسبه أبو عبد الله بن أبي الخصال[4]، وسكن إشبيلية.

ولا يذكر الذين ترجموا لأبي عمرو بن الإمام مكان ولادته ولا زمانها، ولكن يستفاد من نسبته السابقة أنه ولد إما في شلب أو في استجة، ثم انتقل إلى اشبيلية[5] فنشأ وتعلم فيها، بعدها رحل إلى قرطبة[6]، ولا تتحدث المصادر عن نشأته ودراسته، وتلاميذه، بل تذكر بعضا من شيوخه الذين تلقى عليهم أبو عمرو ابن الإمام علوم الأدب واللغة، وسنأتي بأسماء هؤلاء الشيوخ بعد قليل.

---

(1) ترجمته في : التكملة 168/3 رقم 421 والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135 والوافي بالوفيات 20 (غير مرقم) ونفح الطيب 478/3 رقم 339 وإيضاح المكنون 27/2.

(2) شلب Silves: من مدن غرب الأندلس، وهي قاعدة كورة أكشيونة على مقربة من البحر المحيط الأطلسي، وهي قبلي مدينة باجة، وقد حكمها بنو عباد ثم خضعت للمرابطين والموحدين حتى سقطت سنة 640هـ، انظر : الروض المعطار، ص 342–343 والمغرب 381/1.

(3) إستجة Ecija ونطقها العامي كما في كتب الأمثال إسجة، وهي مدينة تقع جنوب شرقي إشبيلية قريبة منها، وفيها يقول عبد العزيز الملزوزي :

أتيت من إسجة صغيرا وكنت أحبه حبا عظيما

انظر : الروض المعطار ص 53 واختصار اقتباس الأنوار ص 67 ووصف الأندلس لابن الشباط التوزري ص 112–113 وطرفة الظريف ص 41.

(4) الذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

(5) إشبيلية Sevilla: من مدن الأندلس الكبرى، وتقع على نهر الوادي الكبير، وكانت عاصمة للأندلس في عهد الموحدين، وسقطت سنة 646هـ.
انظر : الروض المعطار ص 58–60 واختصار اقتباس الأنوار ص 67–68.

(6) قرطبة Cordoba : قاعدة الأندلس وأم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وفيها المسجد الجامع، وقد تغلب عليها النصارى في أواخر شوال من سنة 633هـ.

وقد امتعض أبو عمرو بن الإمام للآداب في صدر دولة بني عبد المؤمن[7].

ولم يزل أبو عمرو بن الإمام مقيما في إشبيلية إلى أن توفي فيها بعد الخمسين وخمسمائة[8]، ويذكر الصفدي إلى جانب هذا أنه توفي في حدود الستين وخمسمائة[9].

شيوخه :

تلقى أبو عمرو بن الإمام بواكير تعليمه في إشبيلية التي كانت أهم كور غرب الأندلس، منارا للعلم يقصدها الناس من بقاع شتى؛ فقد كانت تشهد في تلك الآونة حركة علمية وازدهارا في مختلف العلوم والفنون، وكانت تستقطب صفوة علماء المغرب والأندلس، حتى أصبحت تزخر بعلماء أفذاذ حظي ابن الإمام بالتلمذة على كثير منهم والتلقي عنهم.

ولم يكتف بذلك؛ بل رحل إلى قرطبة يقطف أطايب ثمار العلم على أساتذتها الأجلاء في النحو واللغة والتاريخ والحديث وعلوم القرآن، سمى لنا بعضهم ابن الأبار في تكملته، وابن عبد الملك المراكشي في ذيله، وفيما يلي قائمة هجائية بأسماء هؤلاء الشيوخ :

1 ــ أبو عبد الله محمد بن مسعود بن أبي الخصال الغافقي (توفي سنة 540هـ، انظر ترجمته في هذا الكتاب رقم 11)، ذكر ذلك في التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

2 ــ أبو بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز القرطبي الشراني المعروف بابن المرخى (توفي سنة 536هـ. انظر ترجمته في هذا الكتاب رقم 10)، ذكر ذلك في التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

3 ــ أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي (توفي سنة 543هـ. انظر ترجمته في هذا الكتاب رقم 21)، ذكر ذلك في التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

(7) نفح الطيب : 478/3.
(8) التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.
(9) الوافي بالوفيات 20/ (غير مرقم).

4 ــ أبو عبد الله جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي القرطبي (توفي سنة 535هـ. انظر ترجمته في هذا الكتاب رقم 22)، ذكر ذلك في التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

5 ــ أبو بكر محمد بن إبراهيم العامري الإشبيلي (لم نقف له على ترجمة)، ذكر ذلك في التكملة 168/3، والذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.

مناقبه وآراء العلماء فيه :

لقد نال أبو عمرو بن الإمام شهرة عظيمة في حياته وبعد مماته، وترك الناس، وكلهم يلهج بالثناء عليه ومدحه، ويصفه بالفضل وحسن السيرة، واتساع العلم، والتفنن في التصنيف، والاجتهاد والتبحر في علوم عصره.

يقول عنه ابن الأبار : «وكان من علماء الأدباء بليغ القلم واللسان معروفا بالإجادة والإحسان، كاتبا متقدما شاعرا مجيدا»[10].

كما قال عنه ابن عبد الملك المراكشي : «وكان من جلة الأدباء وعلية الكتاب والشعراء»[11].

وذكره الصفدي فقال : «كان أديبا بارعا بليغ العلم واللسان، كاتبا شاعرا محسنا»[12].

ووصفه المقري، فقال : «وقد امتعض للآداب في صدر دولة بني عبد المؤمن، فجمع شمل الفضلاء الذين اشتملت عليهم المائة السابعة إلى مبلغ سنه منها في ذلك الأوان، واستولى بذلك على خصل الرهان، وانفرد بهذه الفضيلة التي لم ينفرد بها إلا فلان وفلان»[13].

(10) التكملة 168/3.
(11) الذيل والتكملة س 5 ق 1 ص 135.
(12) الوافي بالوفيات 20/ غير مرقم.
(13) نفح الطيب 478/3.